السلسلة: الظروف الماديّة والفكريّة للعلوم في المدينة الإسلامية

الفصل 1 | العلمُ والفلسفة في العصر الهلنستيّ المتأخّر

المقال 3 | الكتاب الذي شكّل الفلسفة الإسلامية... ولم يكتبه صاحبه!

تخيّل كتابًا يُنسب لمؤلف معيّن، فيقرأه أعظم عقول عصره، ويبنون عليه أفكارهم، ويستشهدون به بثقة كاملة قائلين "قال أرسطو كذا"... بينما المؤلف الحقيقي شخص آخر تمامًا، عاش بعد "المؤلَّف المزعوم" بما يقارب ستة قرون!

هذه ليست رو اية خياليّة. هذه قصة حقيقية غيّرت مجرى الفلسفة الإسلاميّة.

كتاب باسم أرسطو... من كتب أفلوطين

في قلب المكتبة الفلسفيّة العربية، كان هناك كتاب يحمل عنوانًا مهيبًا "ثيولوجيا أرسطوطاليس" أي (اللاهوت الأرسطي). والاسم وحده كافٍ ليمنح الكتاب سلطة لا تُناقَش — فهو، بحسب العنوان، كلام "المعلّم الأول" نفسه في أخطر قضية فلسفيّة: طبيعة الإله والوجود المطلق.

لكن الحقيقة التي يوثّقها الباحثون (وأبرزهم عبد الرحمن بدوي في تحقيقه الشهير سنة 1955) صادمة: هذا الكتاب ليس لأرسطو إطلاقًا. إنه في الواقع نصوص من كتاب "التاسوعات" لفيلسوف اسمه أفلوطين (Plotinus)، مؤسّس المدرسة المعروفة بـ"الأفلاطونيّة المحدثة" — والذي عاش في القرن الثالث الميلادي، أي بعد وفاة أرسطو بما يقارب ستة قرون!

كيف حدث هذا الخلط؟

لم يكن الأمر عبثًا أو تزويرًا متعمّدًا بالمعنى الفج للكلمة، بل نتاج مسار تاريخي معقّد:

في أواخر العصور القديمة، كانت المدارس الفلسفيّة في الإسكندرية تعمل على التوفيق بين أفلاطون وأرسطو، معتبرة أن الاختلاف بينهما ظاهري فقط، وأن الحقيقة الفلسفيّة العليا واحدة. في هذا الجوّ التوفيقي، جرت "مواءمة" نصوص أفلوطين وتنظيمها ضمن مجموعة النصوص المنسوبة إلى المدرسة الأرسطيّة، حتى قُدّمت للقارئ العربي تحت اسم أرسطو نفسه — وكأن أرسطو، في نهاية حياته الفكريّة، بلغ رؤية "لاهوتية" تتوّج فلسفته المنطقيّة والطبيعيّة المعروفة.

والنتيجة، كما وصفها أحد الباحثين المعاصرين بدقة: صار أرسطو، صاحب السلطة التي لا يُشكّ فيها، غطاءً يحمل من ورائه فكرًا مختلفًا تمامًا — ما سُمّي بـ"سلطة المجهول".

تأثير حقيقي رغم الخطأ

هنا تكمن المفارقة الأعمق: رغم أن نسبة الكتاب كانت خاطئة، فإن تأثيره كان حقيقيًا وهائلًا.

فلاسفة الإسلام الكبار — بدءًا من الكندي، أول فيلسوف عربي، وصولًا إلى الفارابي وابن سينا — قرأوا هذا النص باعتباره الكلمة الأخيرة لأرسطو، وحاولوا التوفيق بينه وبين كتب أرسطو "الحقيقيّة" (كالمنطق والطبيعيات). ونتيجة لذلك، تشرّبت الفلسفة الإسلاميّة عناصر أفلاطونيّة محدثة عميقة — كفكرة "الفيض" وتراتبية الوجود الروحي — ونسجتها في صميم نظامها الفكري، معتقدة أنها تقرأ أرسطو الخالص.

بمعنى آخر: خطأ في النسبة صنع تيارًا فلسفيًا حقيقيًا لا يمكن فهم تاريخ الفكر الإسلامي من دونه.

درس في كيفية عمل التاريخ الفكري

هذه القصة تعلّمنا شيئًا أعمق من مجرد "تصحيح خطأ تاريخي طريف". إنها تكشف كيف أن الأفكار لا تنتقل عبر التاريخ بشكل نقي ومباشر، بل عبر طبقات من التفسير وإعادة التركيب والفهم — وأحيانًا سوء الفهم الخلّاق. فالحضارة الإسلاميّة لم تكن مجرد مستقبِل سلبي لتراث يوناني جاهز ومحدّد بدقة، بل كانت شريكًا فعّالًا في صياغة هذا التراث نفسه، حتى وهي تظن أنها تنقل فحسب.

فحين نقرأ اليوم عن "الفلسفة الإسلاميّة المتأثرة بأرسطو"، علينا أن نتذكر: جزء كبير من "أرسطو" الذي عرفه فلاسفة الإسلام لم يكن أرسطو على الإطلاق.

المصدر الأصلي: مقتبس ومُعَدّ عن فصل "العلم والفلسفة في العصر الهلنستي المتأخر"، بقلم غيرهارد إندرس (Gerhard Endress)، ضمن المجلد الثالث من موسوعة "تاريخ العلم"، الصادرة عن معهد الموسوعة الإيطالية (تريكاني) 2002، بإشراف رشدي راشد. وهو جزء من الموسوعة التي تُعِدّ دار الرّبّان للنشر حاليًا لترجمتها ونشرها بالعربية كاملة.

الكتاب الذي شكّل الفلسفة الإسلامية... ولم يكتبه صاحبه!

https://arsco.org/publications/2323

https://arsco.org/